الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة محمد لمين دباغين، سطيف2

كلية الآداب واللغات

قسم اللغة العربية وآدابها

محاضرات موجهة لطلبة السنة الثالثة ليسانس ـ الدراسات اللغوية بنظام (ل.م.د.)

مقياس منهجية البحث اللغوي

إعداد الأستاذة: دلولة قادري

المحاضرة السادسة
مناهج البحث اللغوي في التراث

المحاضرة السادسة

مناهج البحث اللغوي في التراث

إن من مسلمات الدراسات الحديثة أن اللغة ظاهرة اجتماعية قديمة قدم الإنسان نفسه، فلقد مارس الإنسان اللغة منذ أن وجد، إلا أن تدوين تلك اللغة وتخليدها للأجيال اللاحقة كان متأخرا جدا وقد قدرها العلماء بخمسة آلاف سنة فقط ، أما البحث اللغوي فهو حديث النشأة نسبيا، لم ينشأ إلا في إطار التقدم العلمي ومن المسلم به أيضا أن العلم مهما كان ميدانه، لغويا كان أم غير لغوي، منهج قبل أن يكون نتاجا أو مضمونا ، وقد رأينا في المحاضرات السابقة أهمية المنهج في مجال العلوم كلها، حيث أنه يسهم في التنظير للفكر ، فهو الأساس للبناء النظري ، ولكل نوع من العلوم طبيعته التي تميزه، ولكل علم مناهجه الخاصة التي يسير عليها لدراسة المشكلة القائمة، فمنهج البحث هو طريقة موضوعية يتبعها الباحث لدراسة ظاهرة من الظواهر بقصد تشخيصها وتحديد أبعادها ومعرفة أسبابها وطرق علاجها والوصول إلى نتائج عامة يمكن تطبيقها، يقول عبد الرحمن الحاج صالح : " إن طريقة النظر لتحصيل العلم تختلف من قوم إلى قوم ومن زمان إلى آخر ، ولكل قوم و لكل زمان تصور و منظور أو أكثر من منظور، وقد لاحظ المؤرخون للعلوم والصنائع أن بعض الحضارات في القديم تميزت عن غيرها بمعرفتها لطرائق علمية مارستها بالفعل منذ زمان قديم كالمصريين والبابليين و الفينيقيين والهنود وأهل الصين واليونان والعرب وغيرهم، وقد توسع المؤرخون للعلوم في إحصاء كل الوسائل العقلية التي عرفت واستخدمت عبر العصور وحللوها تحليلا دقيقا وأثبتوا كيفية تطورها على مر الزمان". وإذا ما نظرنا إلى الحضارة الهندية، وأمعنا النظر في تلك الدراسات للغة السنسكريتية (Sanskrit)، أدركنا أنهم درسوا اللغة من كل جوانبها الصوتية والنحوية والمعاجم ، وأنهم كانوا أقرب في طريقة دراساتهم للغة من المنهج العلمي الحديث، يقول أحمد مختار عمر: " ظهرت في الهند القديمة دراسات اللغة

السنسكريتية (لغة الهند الكلاسيكية) على مستوى عال من التنظيم والدقة، و ربما كان الهنود أسبق - حتى من اليونانيين - في هذا الميدان، سواء من ناحية الزمن أو ناحية القيمة". وأهم ما يثبت ذلك هي طريقة تناولهم للجانب الصوتي للغة ، وهي طريقة تكاد تلامس ما ذهب إليه الدرس الصوتي الحديث، يقول أحمد مختار عمر : " ويكفي الهنود فخرا أن تكون جهودهم الصوتية هي الأساس الذي بنى عليه علماء الأصوات المحدثون"، وأشهر علماء الهنود في القرن الخامس قبل الميلاد هو النحوي بانيني (Panini) (ت480ق.م) الذي اتسم منهجه بالشمول.

ولم يكن الإغريق أقل شأنا في عنايتهم بلغتهم والبحث فيها من غيرهم في تلك العصور، وبالنظر إلى ما قدمه علماء اليونان في مجال اللغة ، نعلم بما لا يدع مجالا للشك أنهم لجأوا إلى وسائل عقلية مكنتهم من إقامة قوانين وقواعد تحكم اللغة اليونانية ، لدرجة أنهم اعتقدوا أنها مقياس للغات العالم كلها، إلا أن علماء اللغة المعاصرين يرون أن الدراسات اللغوية عند الإغريق في القرن الرابع قبل الميلاد ابتعدت كثيرا عن المنهج العلمي بمفهومه الحديث، حيث أن نظراتهم لدراسة اللغة كثيرا ما كانت تخلط بين التفكير اللغوي والفلسفي، يقول تمام حسان : "فالدراسات الإغريقية على سمعتها وعمقها لم تخلق للدراسات اللغوية منهجها الخاص ، ولم تفكر في اللغة إلا في ظل المنطق والميتافيزيقيا."

أما المصريون القدماء فقد كان تأثرهم بالدراسات اليونانية واضحا، لدرجة أن أبحاثهم في اللغة بفروعها المختلفة من أدب ونحو ومعاجم، دارت حول اللغة اليونانية، وقد تركزت دراساتهم في الإسكندرية بداية من القرن الثاني قبل الميلاد.

ولم تسلم الدراسات اللغوية في العهد الروماني من التأثر بالفلسفة اليونانية، حيث تبنى الرومان الثقافة الإغريقية وطريقة الإغريق في التعليم، ولذلك اعتمد النحاة اللاتينيون على النموذج الإغريقي، وفي روما كما في الإغريق كانت الدراسات اللغوية تابعة للفلسفة والنحويون الرومانيون لم يتبعوا الإغريق في الأسس العامة فحسب بل أخذوا منهم حتى النقاط التفصيلية.

أما العرب فقد عظمت اللغة العربية عندهم، كيف لا وهي لسان القرآن الكريم، والأكيد أن ازدهار الحياة الفكرية عندهم، لم يكن وليد الصدفة، بل لا بد أن يكون هؤلاء العلماء لجأوا في أبحاثهم اللغوية وغير اللغوية إلى وسائل تحليلية منطقية تعتمد على الملاحظة الدقيقة والتجربة العلمية والفهم السليم، يقول يوسف خليف : "ليس من اليسير أن نتصور أن تزدهر الحياة الفكرية عند العلماء المسلمين ذلك الازدهار الرائع الذي شهدته المراكز الثقافية منذ القرن الثاني للهجرة من غير اصطناع لمناهج علمية ثابتة تحدد طرق البحث للعلماء ، وترسم لهم خطواتهم، وتقوم ما اعوج منها، ولكن ليس من اليسير أيضا أن ندعي أن هؤلاء العلماء وضعوا علما لمناهج البحث في مفهومه العلمي الدقيق الذي اصطلح عليه العلماء منذ عصر النهضة الأوروبية"، وإذا كان العلماء في عصر النهضة الأوروبية قد وضعوا أسس المناهج العلمية وقواعدها التي أحدثت ثورة كبيرة في مجال العلم والمعرفة وأخضعوا اللغة لذلك، فإن علماء العربية قد وظفوا ذلك في أبحاثهم اللغوية قبل ذلك العهد بقرون، إذ أنهم لم يبتعدوا عن أصول منهج البحث العلمي الحديث كثيرا، لا من حيث الإطار الفكري الذي يعمل من خلاله العقل، ولا من حيث الخطوات التطبيقية، إذ نجدهم قد استعانوا بالاستقراء والاستنباط كأسلوبي تفكير وبحث، عدتهم في ذلك الملاحظة الدقيقة الواعية، وأخضعوا كل ذلك للتجريب، ولذلك جاءت دراساتهم اللغوية أكثر دقة وتماسكا من غيرهم من الأمم، ولعل ما قام به الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت 175ه) وتلاميذه ومن جاء بعدهم من العلماء الأفذاذ أمثال ابن جني (ت 392ه) ابن سينا (ت 428ه) في المجال الصوتي يظهر ذلك بشكل واضح، وإن نظرة خاطفة في أبحاثهم تدلنا على أنهم قد وظفوا المناهج المعتمدة اليوم في الأبحاث اللغوية، وأكثر المناهج وضوحا في أبحاثهم هو المنهج الوصفي ، ثم المنهج التاريخي، وقلما استعانوا بالمنهج المقارن، ونادرا ما كانوا يلجؤون إلى المنهج التقابلي ، غير أنهم لم يسموها بهذه الأسماء و لم يصفوها بالوصف الذي جاء به العلم الحديث. وإذا كان العلماء المعاصرون قد أيقنوا أن مناهج البحث العلمي واللغوي هي مناهج متكاملة لا يناقض بعضها

بعضا، فإن علماء العربية الأوائل كانوا على وعي كامل بذلك، فكثيرا ما كانوا يوظفون في العلم الواحد و في البحث الواحد منهجين أو ثلاثة، إلا أن المنهج الذي نال حظا وافرا في أبحاثهم هو المنهج الوصفي، لاعتمادهم في كل أبحاثهم على اللغة المنطوقة عن طريق المشافهة والسماع.

إن الحديث عن مناهج البحث اللغوي في التراث عموما وعند العرب خاصة يقتضي الحديث عن مراحل هذا النوع من البحوث، وإن نظرة ممعنة في التراث اللغوي العربي تجعلنا نشبه مراحل تطور البحث اللغوي بمراحل حياة الإنسان الذي يمر بمرحلة الولادة، ثم الطفولة، ثم مرحلة الشباب والقوة، ثم الكهولة، ثم الشيخوخة، ثم الممات، فالانبعاث ، كذلك هي مراحل البحث اللغوي عند العرب، ولد مع مجيء الإسلام، فمر بمرحلة الطفولة في القرن الهجري الأول، ثم عصر القوة والازدهار في القرون السنة الهجرية الأولى، ثم بدأ البحث اللغوي يخفت شيئا فشيئا لأسباب عديدة، ثم أصابه الوهن والضعف و كاد أن يموت لولا رعاية الله لمادته وهي لغة القرآن، وتعهد أبناؤها في العصر الحديث بدراستها والتنقيب عنها في مكنونات تراثنا العريق، وبذلك تحقق انبعاثها من جديد، والحقيقة أن هذه هي سنة الله في خلقه، وهذه هي طبيعة العلوم كلها.

والحقيقة أن البحث اللغوي عند العرب بدأت بوادره في وقت مبكر جدا بعد مجيء الإسلام، حيث أثبتت الروايات أن من بين أسباب وضع أبي الأسود الدؤلي (ت 69ه) لمبادئ النحو أنه دخل إلى ابنته بالبصرة فقالت له: "يا أبت ما أشد الحر" (رفعت "أشد")، فظنها تسأله وتستفهم منه (أي زمان الحر أشد؟)، فقال لها: "شهر ناجر" (يريد شهر صفر)، فقالت: "يا أبت إنما أخبرتك و لم أسألك"، فقال لها: "ما هكذا تقول العرب"، إذ كان الأولى لها أن تقول له متعجبة (يا أبت ما أشد الحر) بالفتح، وبذلك تغير المعنى العام لهذه الجملة بمجرد تغيير صائت قصير بآخر، فأتى علي بن أبي طالب رضي الله عنه فقال: (يا أمير المؤمنين ذهبت لغة العرب ويوشك إن تطاول عليها زمان أن تضمحل، فقال له: وما ذاك؟ فأخبره خبر ابنته، فقال: هلم صحيفة ثم أملى عليه: الكلام لا يخرج عن اسم وفعل وحرف جاء لمعنى، ثم رسم له رسوما، فنقلها النحويون في كتبهم" وأول ما يمكن استخلاصه من هذا النص، هو تلك العناية الكبيرة التي أولاها أبو الأسود للصوائت القصيرة، والتي اصطلح عليها قديما بالحركات، لما لها من أثر كبير في تحديد المعنى وفي العموم فإن العلماء يرون أنه لما قدم الكثير من الأعاجم إلى مكة، لأخذ علوم الدين من منابعها، أضف إلى ذلك الأسرى والموالي الذين أسلموا وتعربوا، وبعد هذا المزج والاختلاط صعب فهم اللغة العربية واتسعت الهوة بين الفصحى ولغة العامة، بل وحتى بعض الخاصة منهم وهم أبناء العلماء، قرر أهل العلم واللغة جمعها واستنباط أحكامها العامة والفرعية، وكان ذلك من أوليات البحث اللغوي عند العرب ، حيث خرج اللغويون لجمع المادة من أفواه العرب الأقحاح لأسباب عدة، كان أهمها: العامل الديني بشرح وتفسير القرآن الكريم والحديث الشريف ليتمكن العرب والأعاجم من فهم النصوص الدينية، واللحن اللغوي الذي تفشى واستشرى على ألسنة العرب وغير العرب بعد دخول الأعاجم، وهو انحراف كلام العرب عن قواعد اللغة.

ولم يكن أبو الأسود الدؤلي وحده من اشتغل باللغة العربية بدءا بأهم عنصر من عناصرها وهو الصوت، فلقد أدرك علماء العربية القدامى أهمية توظيف مطالب الدرس الصوتي في تجسيد و فهم مسائل مختلفة في علوم مختلفة، سواء في علم الصرف أو النحو أو المعاجم أو غيرها، وقد كان ذلك في وقت مبكر جدا، بدءا من القرن الأول الهجري. وعموما فإن المناهج المستخدمة في البحث اللغوي أربعة، وهي: المنهج التاريخي، المنهج المقارن، المنهج الوصفي، والمنهج التقابلي.